

شرح حديث بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء

قال المصنف رحمه الله: قال ابن شهاب وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: { بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني. فأنزل الله عز وجل: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ } إلى قوله: { وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ } فحمي الوحي وتواتر { . تابعه عبد الله بن يوسف وأبو صالح وتابعه هلال بن رداد عن الزهري وقال يونس ومعمر بوادره . يقول نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحدثهم عن فترة الوحي ، ذكر أنه توقف الوحي مدة سنة أو سنتين أو نحوها، فأهَمَّهُ صلى الله عليه وسلم وحزن لهذا التوقف، فكان يذهب هائمًا، ومن شدة شوقه إلى نزول الوحي يكاد أن يتردى من رأس الجبل، حتى إذا هم بذلك بدا له الملك وقال: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فيهدأ. يقول مرة فرفعت رأسي فإذا هو ذلك الملك الذي هو جبريل عليه السلام جالس على كرسي بين السماء والأرض، جالس في الهواء على كرسي، فلما رآه رعب منه؛ يعني ارتجف فؤاده وفزع فزعًا شديدًا، ورجع إلى خديجة للمرة الثانية وقال: زملوني. من شدة الرعب والفرع والخوف، فزملوه؛ يعني غطوه بغطاء غليظ، فعند ذلك جاءه الملك وأنزل عليه أول سورة المدثر، وقيل: أول سورة المزمل، والصحيح أنه أنزل عليه أول سورة المدثر: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَتَيَّابِكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمُنُّ بِتَسْتَكْبِيرٍ وَلِرَبِّكَ قَاصِرٌ } هذه أول ما نزل عليه بعد فترة الوحي وبعد سورة اقرأ. لما أنزلت عليه امتثل ما أمر به، { قُمْ فَأَنذِرْ } أي: انتبه من مكانك وقم وأنذر الناس، أنذرهم يعني حذرهم عن الشرك وخوفهم عن الكفر، فإن الله تعالى بعثك بشيرًا نذيرًا. { قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ } أي: عظم ربك وكبره، كبره بعبادته، وكبره بتوحيده، واعتقد أنه الكبير الذي لا أكبر منه، الكبير المتعال، وعظمه بصرف جميع عبادتك له وحده. { وَتَيَّابِكَ فَطَهِّرْ } قيل إن المراد الكسوة؛ أي طهرها عن النجاسات، وقيل إن المراد الأعمال؛ طهر أعمالك عن الشرك، الأعمال التي تعملها وتتقرب بها إلى الله إذا كانت خالصة فإنها طاهرة، فإن الشرك والبدع ونحوها تنجسها وتفسدها وتقذرها، فطهر أعمالك عن الشرك. { وَتَيَّابِكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ } قرأها بعضهم: (والرَّجْزَ فَاهْجُرْ) الرجز والرجس هي الأصنام، وهجرها تركها وأهلها، والبراءة منها ومن أهلها، سماها الله تعالى رجزًا في قوله تعالى: { وَبُذِّبَتْ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ } يعني دعوته إلى الشرك، وسماها رجسًا في قوله تعالى: { قَاجْتَبِئُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَبِئُوا قَوْلَ الزُّورِ } فأمره في هذه الآية بأن يهجرها؛ يبغضها وبمقتها وبمقت أهلها. { وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمُنُّ بِتَسْتَكْبِيرٍ } أي: لا تمل من الاستكثار من العبادة؛ بل عليك أن تكثر من العبادة والطاعة التي أمرت بها وأرسلت إليها، تستكثر منها مهما استطعت. { وَلِرَبِّكَ قَاصِرٌ } أي: اصبر على ما يصيبك من الأذى؛ كأنه أشار إلى أنك سوف تُكذَّبُ وسوف تؤذى، وسوف ينالك كلام سيئ وسخرية وتكذيب، فعليك أن تتحمل كما قال في آية أخرى: { قَاصِرٌ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ } امثل ذلك كله وصبر حتى نصره الله تعالى وأظهره. بعد نزول هذه الآيات حمي الوحي وتواتر وتتابع واستمر، وعرف أنه مرسل من الله تعالى، وأن ما ينزل عليه فإنه الوحي من الله تعالى. كَمَلَّتِ السُّورَتَانِ سورة العلق كملها الله تعالى بقوله: { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّعَلَىٰ } إلى آخره، وكان لما أنه جهر بالدعوة عاداه وأظهر العدوة له رعويس المشركين، وكان من أشهرهم أبو جهل بن هشام الذي اشتهر بالأذى، فقيل: إن هذه الآية إشارة إليه، { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّعَلَىٰ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَىٰ } وأنه كان يمنع النبي صلى الله عليه وسلم من أن يصلي في الحرم، فأنزل الله فيه: { كَلَّا لَا تَطَّعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } أي لا تطعه في نهيك، واسجد يعني صل، واقترب اعمل الصلاة التي هي قربة، والسجود الذي هو طاعة. وكذلك في سورة المدثر فيها إشارة إلى الوليد بن المغيرة الذي وصف في هذه الآية في قوله: { دَرَنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا } وهو الوليد خلقه الله وأخرجه وحيدًا، { وَمَهَيْدُ لَه تَمَّهِيدًا } وأمهه الله تعالى بقوله: { وَبَيْنَ شُهُودًا } يعني وهب له أولادًا غالبًا يكونون شهودًا عنده، { ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ } هذه في قصة الوليد إلى قوله: { إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ } إلى قوله: { سَاصِلِيهِ سَقَرَ } فنزلت هذه الآيات من جملة ما تتابع به الوحي.